حول فلسفة نيتشه

ثورة على القطيع

للأستاذ زكريا إبراهيم

لم يقتصر نيتشه على مناهضة أصحاب النزعة العاطفية المثالية ، بل لقد حاول أيضاً أن يناهض أصحاب النزعة العقلية المتطرفة ؛ فحمل على « العلماء » الذين يؤمنون بالعلوم الوضعية ويرون فيها شفاء ومَقْمعاً للفكر الإنساني ، وحمل أيضاً على « الفلاسفة » الذين يؤمنون بالعقل ويعتبرونه المعيار الوحيد للحقيقة . وبين هؤلاء الذين لا يصدرون في تفكيرهم إلاّ عن « العقل » ، وأولئك الذين لا يصدرون إلاّ عن « القلب » ، وقف نيتشه موقف أستاذه شوپنهور ، فجعل الصدارة للارادة ، وقدّم القوّة على الفكر والعاطفة ، فالإرادة عند نيتشه هي جوهر الوجود ، وكلّ ما في الوجود إنما هو تعبيرٌ عن هذه الإرادة

غير أنّ الإرادة قد تُفهم إمّا بالمعنى الفردي أو المعنى الجمعي ؟ وهذا المعنى الأخير هو ذلك الذي يحرص عليه الديموقراطيّون والاشتراكيّون ، فيُخضعون الفرد للجماعة . ولكنّ نيتشه يتمرّد على « غريزة القطيع » ، ويعلن سيادة الفرد المطلقة في نظام الطبيعة ، على نحو ما أعلن رجال عصر النهضة

وقد انقسم عصرنا الحاضر كلّه إلى طائفتين : طائفة الاشتراكيين ، وطائفة الفرديين ؛ وهاتان الطائفتان قد تشكّلتْ كلٌّ منهما في نهاية الأمر بصورة « إنسانية » . أمّا النزعة الرومانتيكية فإنها في الواقع قد اتجهت إلى عبادة الشخصيّة ، وإنْ كانت قد قدّست على وجه الخصوص تلك التي لا تخضع إلاّ لقانونها فقط ، أعني تلك التي لا تتقيّد إلاّ بالشريعة التي استنّتْها قوّتُها الخاصّة ، مُتَمَثِّلةً في الهوَى المنطلق ، أو الإرادة التي لا ضابط لها . وقد ترتّب على هذه النزعة ، أنْ ظهرت الفردية المتطرفة التي أفضت في النهاية إلى ظهور المذاهب « الفوضوية » . ووُجِدَتْ في الوقت نفسه نزعة رومانتيكية اشتراكية وديموقراطية ، على يد پيير ليروه ، وڤيكتور هيجو ، وجورج صاند ، وميشيليه ؛ وهذه أشاعتْ في المجتمع مبادئ السعادة ، والحرية الشاملة ، والإخاء ، والمساواة . إلى آخر تلك المبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية . أما نيتشه فقد رأى في كل هذه النزعات انحرافاً وانحلالاً ، ولذلك فقد عاد إلى النزعة الفردية البدائية ، ونَصَب « الأنا » أو الذات ، ضد المجتمع بأسره . وبدلاً من تلك الديموقراطية التي تتهدّد بالمساواة بين الجميع ومحو كل الاختلافات والفروق ، أو تلك الاشتراكية الشعبية التي تُفْنِي الفرد لحساب المجتمع ، نجد نيتشه يدعو إلى أرستقراطية جديدة يعارض بها كل تلك المذاهب الديموقراطية والاشتراكية والفوضوية ، ويعتبرها سبيل الخلاص الوحيد ، فيستبدل بالرجل المتوسط المساوي لغيره من الناس ، الرجل الكامل أو « الإنسان الأعلى » Übermensch والرجل المتوسط الذي يحمل عليه نيتشه هو ذلك الإنسان

ولابد أن يكون لهذا السر أثره الفظيع كذلك في ثورة أبي العلاء وتبرمه بالدنيا وتجهمه للحياة وضيقه بالناس ، وتسفيهه لمعتقداتهم التي لم ينتفع بها أهله من أبيه في علاقاتهم بهذا الفتى الأعمى المحروم من العون ، المتقلب في البلاد ، الضارب بين قرى الشام ، المعجب بأساتذته من رهبان ذلك الدير باللاذقية يدرس عليهم الإنجيل والتوراة ، والفلسفة ، كما درس على أبيه الرؤوف الرحيم البار القرآن واللغة والتفسير والفقه والعروض ، وكما درس طرفا لا يعتد به من الحديث على هذا الرجل المدعو يحيي بن مسعر[1] الذي لم يستطع أن يشعر قلب أبي العلاء حلاوة الإيمان ، فأسلمه بجهله إلى الشك والحيرة

ترى ! هل يستطيع أحد أن يكشف لنا عن ذلك السر ؟

« للحديث بقية »

دريني خشبة

---

(١) اليمني : أبو العلاء وما إليه ص ١٥

الوضيع الذى ينساق مع القطيع ، على طريقة خيراف بانورج[1] Les moutons de Panurge . أما ذلك الذى ينطوى على نفسه ، ويفزع إلى الوحدة لكى يعيش كالنجم الغارق فى السكون ، فهو فى نظر نيتشه الرجل القوى المبدع : « إن الأحداث العظيمة لا تنشأ إلا بعيداً عن الجماهير والأمجاد ، فكل من ابتدعوا القيم الجديدة قد انتبذوا لأنفسهم مكاناً قصيًّا ، على منأىً من العامة ، وبعيداً عن الأمجاد » والرجل الممتاز إنما هو ذلك الذى يهرع إلى الوحدة ، وينفرد بنفسه ، لكى يحيا كتلك « الدوحة التى تشرف على البحر فى سكون ، وتصغى إلى هديره فى صمت » !

لقد يصرخ به القطيع قائلاً : « إن من فتش فقد ضل ، وما الوحدة إلا خطيئة » ، ولكنه يمضى غير آبه بصوت القطيع الذى يهيب به ، لأنه يعلم أن صوته نداء العبودية يستصرخه أن يبقى ، وصوت الوحدة نداء الحرية يستصرخه أن ينطلق ! أجل ، إن الرجل الممتاز لم يُخلَق لكى يسير وراء القطيع ، بل لكى يكون ثورة على القطيع ، وناراً حامية تُصلَى بها الجماهير ! فليس على الرجل الممتاز أن يخضع لحكم العامة ، بل عليه أن يخضع لحكم نفسه حسب . وليس من واجب الرجل المبدع أن يأخذ بما يُمليه عليه قانون السواد الأعظم ، بل إن من واجبه أن يتخذ من إرادته قانوناً له ، فيشرّع لنفسه الخير والشر . وليس ينبغى للرجل القوىّ أن يمد يده متسرّعاً لمصافحة من يلتقى به فى طريقه ، بل ينبغى له إذا التقى بتلك الحشرات التى يتحلّب ريقها بالسم ، أن يسارع إلى وحدته ، حتى لا تمتد إليه السموم الخبيثة التى تنفثها حشرات المجتمع !

فالرجل الممتاز إذن هو ذلك المتوحد الذى يعتزل الناس لكى يعيش بعيداً عن المجتمع ، منطوياً على نفسه ؛ وأما الرجل الضعيف فهو ذلك الذى يشعر بحاجته إلى الاجتماع بالناس ، والانضمام إلى القطيع . ولذلك يقول نيتشه : إن الأقوياء ينزعون إلى الانفصال والتفرّد ، على حين ينزع الضعفاء إلى الاتحاد والتجمع . والرجل الممتاز — كما يقول زرادشت — هو ذلك الذى ينفر من المجتمع ، ويأنف من الجماعة ، ويحلّق بجناحيه فوق السحاب ، فترمقه أعين الحاسدين ، وترشقه نظرات الحاقدين . وليس بدْعاً أن يثور الناس على مثل هذا الرجل ، فإن من دأب العامة أن تتمرد على كل رجل مبدع يعزف بنفسه عن غمار الناس : « إنك لتعلو عليهم وتسمو فوقهم ، ولكنك كلما ازددت علوًّا ، ازددت صَغاراً فى أعينهم الحاسدة . أما ذلك الذى يحلّق بجناحيه فوقهم ، فليس أبغض إليهم منه » !

ولكن ، أليس الإنسان حيواناً اجتماعياً يميل إلى التجمع بفطرته ، وينفر من العزلة بطبيعته ؟ ألم يَقُلْ أرسطو إن حياة العزلة لا تتهيأ إلا لإله أو حيوان ؟ إذن فكيف يزعم نيتشه أن « الرجل القوىّ » هو « الرجل المتوحّد » ؟ وكيف يذهب إلى أن الضعفاء هم الذين ينزعون إلى الاتحاد والتجمع ؟ . يجيب نيتشه على هذا فيقول : إن الإنسان حيوان مفترس متوحد ، فالأقوياء الذين هم سادة النوع البشرى يميلون بالضرورة إلى العزلة والتفرُّد ، وينفرون من كل نظام يضطرهم إلى الاتحاد والتجمع ، وبعبارة أخرى فإن الحياة الاجتماعية فى نظر نيتشه معارِضةٌ للطبيعة ، لأن الإنسان حيوان غير اجتماعى بفطرته . وإذا كان الأقوياء قد يكوّنون مجتمعاً فى بعض الأحيان ، فإن ذلك يرجع إلى رغبتهم فى القيام بحركة عدوان مشترك ، يرضون بها إرادة السيطرة التى توجد لديهم جميعاً . ولكنّ شعورهم الفردى فى معظم الأحيان ، ينفر من تلك الحركة المشتركة ، ويتأذّى من ذلك العمل الجمعى . أما الضعفاء فإنهم يرتّبون أنفسهم فى طبقات متلاصقة ، إرضاءً للحاجة التى يشعرون بها نحو هذا التجمُّع ، وبذلك تَلْقَى غريزتهم لذتها القصوى الكاملة

ولكن ، هل من الحق أن التجمع دليل الضعف ؟ أليس التاريخ الطبيعى شاهداً على فساد هذا القول ؟ ... إن الواقع أن الحيوانات التى توجد لديها « غريزة القطيع » قد استطاعت

(١) تتلخص قصة خراف بانورج (وهو شخصية هامة من الشخصيات التى نجدها فى مسرحية لرابليه) فى أن بانورج قد اشتبك فى صراع مع التاجر دندينو Dindenaut الذى أهانه إهانة كبيرة ، فأراد أن يثأر لنفسه منه ، ومن ثم فقد ابتاع منه واحداً من خرافه ، وأطلقه فى الماء ، فسرعان ما ألقت سائر الخراف بنفسها فى الماء ، وراء ذلك الخروف ، واحداً بعد الآخر ؛ وأسرع التاجر يعدو وراءها حتى إذا لم يبق منها غير واحد ، أخذ يعدو محاولا أن يلحق به ، فلما ألقى الخروف بنفسه فى الماء ، قفز التاجر نفسه وراءه ، وبذلك اكتملت هذه الصورة المضحكة التى تصور لنا مدى الانسياق فى الجماعة ، تحت تأثير المحاكاة !